

البعد السوسيولوجي لعلاقة الأرض والإنسان، وإشكالية الحيازة

في منطقة القبائل

The sociological dimension of the land-man relationship, and the tenure in the kabylie region.

ز غود نيسة، د. جاب الله الطيب

جامعة مولود معمري ، zeghoudnissa@gmail.com

جامعة الجزائر 2 tayeb_d75@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/01/10

تاريخ القبول: 2023/02/11

تاريخ النشر: 2023/03/05

الملخص

تعتبر هذه الدراسة محاولة في البحث السوسيولوجي، وبالتحديد في مجال علم الاجتماع الريفي، لاستبيان بعض نواحي وجوانب النشاط الزراعي في المجتمع الريفي القبائلي. أين تمثل هذه الممارسات المورد الأساسي للغذاء لدى بعض العائلات، وذلك من خلال الاستغلال الواسع للأراضي بمختلف أشكالها، وأيضا لتوضيح العلاقات الموجودة بين الأرض والفلاح، والتي أبقت على النشاط الى غاية يومنا هذا، باعتباره موردا اقتصاديا تتوقف عليه حياته الاقتصادية. كما تجدر بنا الإشارة إلى الملكية التي تعتبر من الأشكال المتعددة للحيازة، والطرق التي بها يتم مراقبة واستعمال المصالح، إذ تعمل على تحديد نمط الحياة في هذا النوع من المجتمعات.

الكلمات المفتاحية: المجتمع الريفي_ حيازة الأراضي_ الملكية_ النشاط الزراعي.

Abstract :

This study is an attempt in sociological research, specifically in the field of rural sociology, to investigate some aspects and aspects of agricultural activity in the rural tribal society. Where do these practices represent the main source of food for some families, through the extensive exploitation of lands in its various forms, and also to clarify the existing relations between the land and the farmer, which have kept the activity until this day, as an economic resource on which his economic life depends. It is also worth pointing out to property, which is one of the many forms of tenure, and the

ways in which interests are monitored and used, as it works to determine the lifestyle in this type of society

Keywords: rural community - land tenure - property - agricultural activities

زغود نيسة، د. جاب الله طيب

مقدمة:

تشكل المناطق الريفية الجبلية، بنية اجتماعية، اقتصادية، ديناميكية، ذات إنتاجية خاصة على مدار السنة تتسم بتنوع أنشطة الإنتاج المعيشية وفيها نجد انسجام النشاط البشري مع هذه البيئة، التي تجمع بين الأرض، الماء والحياة النباتية والحيوانية، إذ يمثل النشاط الزراعي الركيزة الرئيسية لمعيشة سكان المناطق الجبلية فتتنوع طرق الإنتاج الفلاحي في هذه المنطقة، حيث يغلب عليها الطابع الزراعي الرعوي. وتكتسي أهمية قصوى في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، يسعى سكانها الى الاستغلال الجيد والنافع لها.

كما ويرتبط المجتمع الريفي الزراعي بأراضيه بواسطة رابط روحي مشبع بقيم الأجداد، بما فيها الروحية والثقافية. كما يتمتع بمعارف متعددة ومحددة، تخص كل رقعة فيها مما يجعل هذا الأمر شرط أساسي للبقاء في معظم المناطق الريفية الجبلية. لذا يمكن القول ان دوافع المزارعين فيها يتجاوز تعظيم الأرباح المجنبة، لتصبح أكثر منها دوافع اجتماعية، ثقافية وايكولوجية.

فعللاقة الإنسان بالأرض، ليست مفهوما سوسيولوجيا، وإنما هي إشارة إلى ظاهرة تمتاز بها المجتمعات القروية بصفة عامة ، إذ أن لحياة الإنسان في الريف علاقة وطيدة بالأرض، باعتبارها المصدر الأساسي لرزقه، وهذه الظاهرة، نجدها في كثير من الدراسات القديمة والحديثة التي تناولت المجتمعات الريفية، غير أنها تتضمن عدة معاني وأبعاد، فمن الباحثين من يشير إلى علاقة الملكية والإرث وحياسة الأرض، وكفايتها المختلفة، والعلاقات الرمزية بالأرض وعلاقات الاستغلال بين الذين يستغلونها زراعيًا ورعويًا. ومنهم من يشير إلى العلاقات بين الإنسان والأرض وكيف تتغير بصور القوانين، كالقوانين التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر في فترة الاحتلال وأثرها في تغيير

علاقات الإنسان بالأرض. (1) (Boukhoubza, 1978, p.131)

علاقة الأرض والفلاح بين الحياة والممارسة
دراسة ميدانية لواقع النشاط الزراعي في منطقة تيقزيرت ولاية تيزي وزو

وهدفنا في هذه الدراسة هو فهم العلاقات بين الإنسان والأرض والتي نقصد بها نظرة الفلاح إلى الأرض باعتبارها موردا اقتصاديا يعتمد عليه في حياته الاقتصادية والتي تتحدد وتتأثر بمجموعة من إلى أي مدى يمكن القول ان نوع ملك الأراضي، يشجع على إبقاء ممارسة النشاط الزراعي الى يومنا هذا في منطقة القبائل؟ و هل لطريقة الاستغلال تأثير في ذلك؟

* حياة الأراضي بالمنطقة:

1- خصائص المنطقة:

تقع بلدية تيقزيرت على الشريط الساحلي لولاية تيزي وزو، على بعد 33 كلم شمال مقر الولاية وعن بعد 130 كلم شرق العاصمة، 125 كلم غرب ولاية بجاية. تحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، من الشرق بلدية ايفليس، من الغرب بلدية ميزرانة ومن الجنوب بلديتي بوجيمعة وثيميزار، تبلغ مساحتها 41,67 كلم².

الخريطة رقم (01): تبين ولاية تيزي وزو والموقع الحالي لمنطقة الدراسة.



زغود نيسة، د. جاب الله الطيب

تزخر المنطقة بتضاريس متنوعة، إضافة إلى المنحدرات التي تميزها، نجد هناك غابتين: "أقي أوسنان" و"ميزرانة" ووديان تعبر المنطقة. وفي دراستنا أخذنا العلو كمؤشر أساسي جعلنا نقسم المنطقة إلى ثلاث مناطق مختلفة العلو، كما هو موضح في الجدول التالي:

جدول رقم (1): توزيع المبحوثين حسب موقع المزرعة.

ترتيب المنطقة	إسم المنطقة	نوع التجمع الذي تنتمي إليه	العلو	التكرار	النسبة
منطقة عليا	ثيفرا القلعة	تجمع ثانوي	600 متر إلى 800 متر	45	60 %
المنطقة متوسطة الارتفاع	لعزاب الشرفة	مناطق مبعثرة	300 متر إلى 500 متر	20	26,67 %
منطقة منخفضة	تيقزيرت	تجمع رئيسي	من مستوى البحر إلى 200 متر	10	13,33 %
المجموع	-	-	-	75	100 %

2- خصائص العينة:

إن تحديد ومعرفة فئة الأعمار التي ينتمي إليها المبحوثين يعتبر أمر في غاية الأهمية في هذه الدراسة. فقد كان لابد من التعامل مع مجموعة من الفئات تملك مجموعة من الخصائص، وهي أن يكون في سن تسمح له بالزواج، وتمكنه من ممارسة نشاط يكسب من خلاله دخل. ولقد جاءت النتائج فيما يخص متغير رب الأسرة، على أنها ممثلة من 25 إلى أكثر من 45 سنة، إذ لم نجد متزوجين لديهم أقل من 25 سنة. ووجدنا بعض المبحوثين في سن 48 سنة مازالوا يعيشون مع العائلة، كما هو مبين في الجدول التالي:

جدول رقم (2): توزيع المبحوثين حسب موقع المزرعة.

الفئة العمرية	التكرار	النسبة
[34 – 25]	25	33.33 %
[44 – 35]	30	40 %
[45 فأكثر]	20	26.67 %

علاقة الأرض والفلاح بين الحياة والممارسة
دراسة ميدانية لواقع النشاط الزراعي في منطقة تيقزيرت ولاية تيزي وزو

المجموع	75	%100
---------	----	------

من خلال هذه النتائج نستنتج أن هناك نوع من الاستمرارية والتواصل بين الأجيال، ذلك ما يفسر وجود مزارعين يفوقون سن 65 سنة، إذ يصلون حتى 72 سنة يمارسون هذا النشاط بكل إرادة. كما أن إدراج متغير المهنة له أهمية بالغة، وذلك لمدى خدمته للموضوع من خلال أهميته في توضيح تلك العلاقة الاجتماعية التي تربط العامل بأرضه من خلال هذه الممارسة ومدى استمرارية ذلك. والجدول الموالي يوضح توزيع المبحوثين حسب المهنة:

المهنة	التكرار	النسبة
مزارع وعامل في القطاع العام	45	%60
مزارع وعامل في القطاع الخاص	23	%30.67
مزارع ذو نشاط ثانوي خاص به	07	%9.33
المجموع	75	%100

نستنتج من خلال ملاحظتنا لهذه النتائج أن سكان هذه المنطقة متعلقين بالأرض وبخدمتها رغم اعتبارهم عمال أجراء في ميادين أخرى.

وقد لا حظنا من خلال اطلاعنا على الميدان أن البعد في المسافة بين إقامة بعض المبحوثين، ومكان عملهم الآخر سواء لدى القطاع العام أو الخاص، لم يكن أبدا عائقا عليهم كي ينتقلوا على مسافة كيلومترات قصد إنجاز ما يجب القيام به في المزرعة من حرث وحصاد وزرع، وأيضا العناية بالمنتجات الزراعية.

فتعتبر هذه الملاحظة هي الأولى التي شددت انتباهنا لمواصلة البحث ومحاولة الإجابة على أهم التساؤلات وهو ما سبب هذا الارتباط بين الأرض والفلاح؟

وهل وراء هذا كله حتميات وضروريات علينا كباحثين الوقوف على مجراها؟
3-حياة الأراضي:

يؤثر هيكل الحيازة الزراعية بأي إقليم ريفي في تحديد مستوى الإمكانيات المالية للمزرعة، وأنماط استخدام الأرض وحجم السكان الزراعيين، وتوزيع المحلات العمرانية، وطبيعة العلاقات بين الإنسان والأرض (2) (الزوكة، 1991، ص 268).

والريف الجزائري عرف حركة مزدوجة لتفكيك ملكية المجال لدى الفلاح، وذلك من خلال الاستعمار الذي رفع الحيازة على بعض الأراضي، والدولة الجزائرية التي حولت البعض منها إلى أراضي شبه مأجورة، والظاهرة هذه قامت بإبعاد الأرض عن الفلاح، وبالتالي إضعاف العلاقات بينهما، والتي كانت مصدر قوة المجتمعات الريفية منذ قرون (3) (COTE Marc, 1993, P.273).

فلو تحدثنا عن وضعية الأراضي أثناء الاستعمار، نجد أن فرنسة العقار تم من خلال قانونين كان لهما الأثر البالغ على النظام العقاري، وذلك استكمالا لحلقات السلب والنهب التي استهدفت أراضي الجزائريين قصد تسهيل عملية إجراء التصرفات القانونية في هذه الأراضي بتحويل بعضها إلى ممتلكات فردية، قابل للتنازل عليها لفائدة المعمرين. نذكر إذن قانون "السيناتوس كونسولت" في 22 أبريل 1863، كان يهدف إلى تسهيل عملية انتقال الملكية من الجزائريين إلى المعمرين، نظرا لاختلال التوازن الاقتصادي بينهما، وأيضا للتمكن من القضاء على النسيج والترابط الاجتماعيين الذي كانا سائدين آنذاك (4) (حارش ، 2009).

والقانون الثاني هو قانون "قارني" المؤرخ في 26 جويلية 1873، ويسعى إلى تحقيق هدفين هما: توزيع الأراضي الجماعية والمشاعة، والتي استولى عليها الاستعمار بعد طرد الأهالي إلى المناطق الجرداء والجافة على المستوطنين الجدد، والذين يكتسبون بموجب هذا القانون صفة "المالك"، وتوسيع نطاق الملكية العامة للإدارة الاستعمارية. حيث أدمج صوتها ثلاث أنواع من الملكيات وهي:

- ملكية البايك أو تلك التي يمتلكها الأهالي من أصول عثمانية.
- ملكية الغابات والمراعي والأحراش والمناطق النهرية والبحرية.
- الأملاك الشاغرة التي لا سيد لها بالمفهوم الاستعماري للمصطلح وغالبا ما تتألف من أراضي المهاجرين أو تلك التي هالك أصحابها الأصليين جراء المقاومات الشعبية (5) (عجة، 2005، ص 23).

أما بعد الاستقلال فقد تغير وضعية الأراضي ولم يكون يسيرا على السلطة الوطنية، إعلان القطيعة الجذرية مع النظام العقاري الاستعماري حتى ولو أنه يتعارض بصيغة المطلق مع المرجعيات الأساسية للثورة.

إلى أن أعلنت سياستها في 8 نوفمبر 1971 تحت شعار "الأرض لمن يخدمها" ولا يملك الحق في الأرض إلا من يفلحها ويستثمرها (6) (مانع، 1996، ص 19).

كل هذه الأمور أثرت بالطبع في علاقة الفلاح بأرضه، سواء قبل أو بعد الاستقلال، والتي يقول عنها "بيار بورديو" أن: العلاقة التي تربط الفلاح بأرضه هي روحية بقدر ماهي نفعية، ينتهي إلى حلقة أكثر ما ينتهي الحقل إليه، وهو مرتبط به بعلاقة تعهد، كما تشهد بذلك الطقوس الحقلية التي تعبّر عن عاطفة التعلق اتجاه تلك الأرض التي لا تعامل كمادة أولية، وإنما كأرض مغذية (7) (BOURDIEU, 1996, P.97).

4- حق الكسب:

في دراستنا هذه، يقصد هذا المصطلح بتلك التسمية المشاعة بيننا ب: "الملك"، والذي يمثل تلك الحياة الجماعية للأرض المشاعة (8) (Benguergoura, 2005, P.30)، ونجد هذا النوع من الحياة أكثر انتشارا في المناطق الريفية الجبلية، كحالة المنطقة المدروسة "تيقزيرت".

وكما ذكرنا سابقا، فإن فرنسة التشريع الذي جاء خلال الفترة الاستعمارية، وجهت هذا النوع في سياق التقسيم داخل أفراد العائلة هذا ما جعلنا أحيانا حالات أن الملك يعبر على اللاتقسيم، وحالات أخرى يوجد فيه تقسيم، ليصبح بذلك حق كسب آخر يسمى "الملكية". كما يمكنه نقل

النسبة	التكرار	حق الكسب	
78,67%	59	- ملك: أي أراضي موروثه تبقى في أيادي أفراد العائلة	- كيفية استغلال الأرض يكون مباشر أي المستغل يكسب الأرض
5,33%	04	- ملكية: أراضي مشترية	
4%	03	- أراضي تابعة للدولة	- كيفية استغلال الأرض يكون غير مباشر أي المستغل ليس له حق الكسب
12%	09	أراضي مستأجرة من قبل الأفراد	
100%	75	المجموع	

الملكية بصفة جوهرية عن طريق الميراث أو البيع أو الهدية. أما ما يسمى بالملكية المشتركة، فهو مصطلح يستخدمه علماء الاجتماع، كما يستخدمه غيرهم بالتأكيد، للإشارة إلى الحق المشترك،

ولذلك فإننا نجد في كثير من المجتمعات البسيطة الحقوق المشتركة والمعقدة في الأرض والأشياء المادية الأخرى (9) (الجوهري، 1999، ص 241).

بالرجوع إلى دراستنا نجد أن الإحصائيات المتحصل عليها نتيجة مقابلاتنا مع أفراد عينة بحثنا، وجدنا أن شكل (الملك) هو الغالب في المنطقة، وذلك ما يظهره الجدول الموالي حول حق الكسب لدى المزارعين.

جدول رقم (9): توزيع المبحوثين حسب حق كسبهم للأرض.

نستنتج من خلال هذه النتائج أن حق كسب الأرض مرتبط بكيفية استغلالها، فإذا كان استغلال الأرض مباشر يعني أن المستغل لديه حق كسب أرضه سواء كان عن طريق الإرث (الملك) أو عن طريق الشراء (الملكية) كما هو موضح في الجدول التالي:

جدول رقم (10): توزيع المبحوثين حسب استغلالهم المباشر للأرض.

حق الكسب	التكرار	النسبة
عن طريق الإرث ملك	59	93,65%
عن طريق الشراء ملكية	4	6,35%
المجموع	63	100%

نستنتج أن كيفية الاستغلال غير المباشر للأرض وبالتالي فالمستغل ليس له حق الكسب فيها.

فعلى العموم، يمكننا القول إن هذه المنطقة كمعظم مناطق القبائل يطبعها مظهر الإرث كشكل عام لحيازة الأرض، وحسب مقابلاتنا للأفراد، تبين لنا، أنهم إن لم يملكو أرضاً مورثة، فهم يلجؤون إلى شراء قطعة أرض في مكان معين، أو يستأجرونها من طرف أفراد لا يستغلون أرضهم، ونتيجة غلثهم تكون مقسمة بالتساوي بين المالك الأصلي للأرض المستغلة، أما بعضهم الآخر فيلجؤون إلى الدولة للحصول على قطع من أرضها قصد استغلالها.

وفي كل الأحوال، سواء كان الاستغلال مباشر أو غير مباشر فالهم الوحيد للمزارع هو قطعة أرض يخدمها ويستغلها في الزراعة، كما جاء في تصريحات معظم الأفراد، ليضمن وجود مصدر رزق له ولأسرته.

وانطلاقاً من هذه المعطيات، وجدنا أنه من الضروري التعامل مع 63 مبحوث فيما يخص متغير "نوع الملك" قصد إثراء موضوعنا من خلال دراسة مختلف الجوانب التي قد تساعدنا على معرفة علاقته باستمرارية ممارسة النشاط الزراعي، فهذا المتغير متعلق باستغلال الأرض بطريقة مباشرة أين يملك المستغل حق الكسب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فنحن بصدد تحدث عن

تقسيم ولا تقسيم الملك، بمعنى الاستغلال الجماعي والفردى للأرض، ولتوضيح كل هذا اعتمدنا على إحصائيات الجداول التالية:

جدول رقم (12): توزيع المبحوثين حول حق الكسب وتأثيره على نوعية الملك.

المجموع		مقسم (فردى)		غير مقسم (جماعى)		حالة التقسيم حق الكسب
النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	
% 100	59	% 23.73	14	%76,27	45	عن طريق الإرث
% 100	4	-	-	% 100	4	عن طريق الشراء
%100	63	% 22.22	4	% 77.78	59	المجموع

نستنتج إذن من خلال هذه الملاحظات أن معظم الأراضي مورثة وغير مقسمة، أي أن طابع الجماعة هو الذي يميز هذه المنطقة ما يجعل الأفراد يتمسكون بأرضهم ويستغلونها عن طريق الفلاحة. لكن هذا لا يمنع من وجود استغلالات فردية لبعض الأراضي كما بينته النتائج، وكذلك بعض الإجابات التي تحصلنا عليها أثناء مقابلتنا للأفراد والتي تؤكد معظمها أن الفرد عندما يملك أرضا فهو مطالب بخدمتها واستغلالها وإحياءها من جديد كي لا تظل بورا، لأنها المورد الأساسي للغذاء.

جدول رقم (13): توزيع المبحوثين حسب حالة التقسيم وموقع المزرعة.

حالة التقسيم		مقسم (فردى)		غير مقسم (جماعى)		موقع المزرعة
النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	
% 100	38	% 18.42	07	% 81.58	31	منطقة عليا
% 100	17	% 29.42	5	% 70.58	12	منطقة متوسطة الارتفاع
%100	8	% 25	2	% 75	6	منطقة منخفضة
% 100	63	%22.22	14	% 77.78	49	المجموع

نستنتج إذا أن كل الأراضي يطبعها الاستغلال الجماعى، سواء كانت في مناطق مرتفعة أو متوسطة الارتفاع أو على المستوى المنخفض للمنطقة وسبب ذلك حسب ما لاحظنا يعود إلى أن المناطق الجبلية مازالت على طابعها الجماعى.

الخاتمة:

بعد كل هذه التحليل لبعض النتائج نستخلص أن نوع ملك الأراضي الصالحة للزراعة يشجع على إبقاء هذا النشاط الزراعي من خلال ممارسته، إذ ومن خلال تاريخ حياة الأراضي في منطقة القبائل بصفة عامة، تبين لنا أن نوع ملك الأراضي لم يقتصر فقط على الملكيات الزراعية الخاصة المشتركة أو على الأراضي الموروثة (الملك)، وإنما وجدنا أن هناك إستأجار للأراضي من قبل أفراد قصد خدمتها، وكذلك لجوء إلى أراضي الدولة فقط لاستغلال بعض الأراضي الغير مستخدمة، بمعنى أن طريقة الاستغلال كانت بنوعيتها مباشرة وغير مباشرة، وذلك حسب حق الكسب الذي يملكه الفلاح اتجاه أرضه، وعلى هذا الأساس ظهرت لنا نقطة هامة تعلق بموقع هذه المزارع، وهي أن الطابع الجماعى للاستغلال تركز بصورة واضحة في المناطق الجبلية العالية.

أخيرا قد جاء عن العالم الفلاحي اليوم مفهوم خاص به، تمثل في وجود بعض المعطيات والتصرفات والسلوكيات الاجتماعية، ترتكز على قاعدة مشتركة القيم، نستطيع القول إنها تتمثل فيما يلي:

- تكافل عائلي ينطبق على العائلة الممتدة.
- تكافل محلي يوضح في أهمية التعاون وتبادل الخبرات في إطار محلي.
- الرابطة القومية مع الأرض.
- وأخيرا الإرادة في ممارسة الفلاح عمله كعامل مستقل (10) (COURTET, 1993, P. 217).

علاقة الأرض والفلاح بين الحياة والممارسة
دراسة ميدانية لواقع النشاط الزراعي في منطقة تيقزيرت ولاية تيزي وزو

نلاحظ أن هذا المفهوم مطبق على مختلف المجتمعات الريفية، بما فيها مجتمعات الريف الجزائري، وبالخصوص منطقة دراستنا، رغم أن هذا الأمر بدأ في التلاشي في بعض المناطق بجبال القبائل، نظرا للمتغيرات التي حدثت على جميع الميادين، والتي لم نلاحظ لها تأثير في منطقة تيقزيرت محل دراستنا.

قائمة المراجع:

- 1- Boukhoubza Mohamed, Agro-pastoralisme traditionnel en Algérie, Alger :O.P.U, 1978.
- 2- الزوكة محمد خميس: في جغرافية الريف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991.
- 3- CÔTE Marc : l'Algérie ou l'espace retourné, Alger, éd média plus, 1993.
- 4- حارش عبد الهادي: تجمعات في منطقة القبائل: " مجلس القرية أم مجلس العرش"، الملتقى الوطني السادس حول موضوع التنظيمات التقليدية في المجتمع الجزائري، ملحق بوزريعة، الجزائر، 24-25 فيفري 2009.
- 5- عجة الجيلالي: أزمة العقار الفلاحي ومقترحات تسويتها، دار الخلدونية، الجزائر، 2005.
- 6- مانع علي: جنوح الأحداث و التغير الاجتماعي في الجزائر المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1996.
- 7- BOURDIEU Pierre et SAYAD Abdel Malek: Le déracinement, La crise de L'agriculture Traditionnelle en Algérie, Paris, édition Minuit, 1996.
- 8- BENGUEGOURA Chérif: " Droit sur la terre et jeu social dans l'Algérie actuelle " , In : les annales de l'université d'Alger , département de sociologie, Alger , N°15, Tome 1, 2005.
- 9- عبد الهادي الجوهري: معجم علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998-1999.
- 10- COURTET Catherine, Agriculture et société, Association des cartes, édition, INRA, 1993.

زغود نيسة، د. جاب الله الطيب